صورة الأقليات الدينية في كتابات الاوربيين ابان العهد العثماني مصر والعراق إنموذجاً

أ.م.د.إطلال سالم حنا

جامعة الحمدانية – كلية التربية

الملخص

شَكلت الاقليات الدينية جزءً مهماً من المجتمعات العربية، عاشت جنباً الى جنبِ مع مواطنيهم المسلمين الذين شكلوا الاغلبية لينتج بذلك مجتمعاً متماسكاً. ومن هنا نهدف الى دراسة صورة الاقليات الدينية في كتابات الاوربيين في العهد العثماني في كل من العراق ومصر .

ان اهمية الدراسة تنبثق من كون السلطة العثمانية الحاكمة بقيت سلطة سياسية بحتة فالسلاطين العثمانيين ظلوا بعيدين عن احداث تغييرات حقيقية في بُنية المجتمع العثماني والعربي، مما ولد تباعدا اجتماعيا ادى بالتالي الى النفور والعداء، نتج عنه ازدياد الهوة بين الحاكم والمحكوم، واقتصر دور الدولة العثمانية بوصفها اعلى سلطة حاكمة على حماية ممتلكاتها من اعدائها لاسيما اوربا التي بدأت تظهر كقوة تزعزع الامن في جميع ولاياتها منها العراق ومصر، ظهر ذلك جليا في كتاباتهم الرسمية وغير الرسمية لإثارة الخصومات والازمات، وظلت تلك العلاقة قائمة على الروابط الدينية لتتحول الى جزءٍ من الموروث الاوربي تناقله الدبلوماسيون والرحالة والسياسيون الأوربيون استمر حتى نهاية العهد العثماني عام ١٩١٨.

الكلمات المفتاحية(الاقليات الدينية– المسيحيون– اليهود– الصابئة–الاوربيون)

The image of religious minorities in European Writings during the Ottoman period Iraq and Egypt as a Modle

Assist. Prof.Dr.Etlal Salim Hanna

University of AL-Hamdaniya - College of Education

Abstract

Religious minorities formed an important part of Arab societies, living side by side with their Muslim compatriots who made up the majority to produce a cohesive society. Hence, we aim to study the image of religious minorities in the writings of Europeans in the Ottoman era in both Iraq and Egypt.

The importance of the study stems from the fact that the ruling Ottoman authority remained a purely political authority. The Ottoman sultans remained far from bringing about real changes in the structure of the Ottoman and Arab society, which generated social divergence that consequently led to alienation and hostility, which resulted in an increase in the gap between the ruler and the ruled, and the role of the Ottoman state was limited as The highest ruling authority to protect its property from its enemies, especially Europe, which began to appear as a destabilizing force in all its states, including Iraq and Egypt. European travelers and politicians continued until the end of the Ottoman era in 1918.

Keywords (religious minorities, Christians, Jews, Sabeans, Europeans)

المقدمة

ان الحديث عن مسألة الاقليات الدينية من الامور المهمة التي تدعونا لدراستها، اذ تظهر لنا من الوهلة الاولى بان المسألة جزء من الجماعة الوطنية التي تبدو وكأنها مسالة ثانوية لا تحتاج الى البحث او دراستها، وهي عند دراستنا لها كما صورتها المدونات الاوربية والتي سناتي على ذكرها بصورة اكثر تفصيلا ستظهر لنا بأنّ أحوالهم كالمسيحيين واليهود والصابئة والايزيدية هي جزء خاص بهم كاقلية، ولكن الحقيقة التاريخية توضح لنا بانها ليست شأنًا خاصًا بهم فقط ، بل هي شأنٌ يهمّ مواطنيهم المسلمين أيضًا، لان مسالة الحفاظ على وجودهم وحقوقهم يصب في مصلحة المجتمع ككل[1] .

توجد في المشرق العربي اقليات دينية سكنته منذ القدم ويعد سكانها اصليين في البلاد التي تواجدوا فيها، شكلت مجموعات اثنية- دينية، احتفظت تلك المجموعات بطقوسها الدينية ولغتها الخاصة المختلفة عن اللغة الوطنية الرسمية، الا انها اصبحت بفعل الهجرات او التهجير القسري قليلة العدد[2] .

اعتمد التدوين الاوربي عن الاقليات الدينية في المشرق العربي ومنذ عهود بعيدة على الاحكام المسبقة والافكار وازدادت تلك لتتحول جزء من ثقافة الغرب ونظرتهم الى الاقليات الدينية في العراق ومصر تحديدا عن طريق عدد كبير من الدراسات والرحلات والزيارات الميدانية التي قاموا بها اليه والتي تحولت الى خبرات طويلة ليحددوا بها ملامح الشرق، اذ قسموا تلك الخبرة الى جغرافية موروثة عن علماء الاغريق اليونانيين الى قارات ثلاث وهي القارات المعروفة آنذاك اسيا وافريقيا واوربا، ليضيفوا اليها فيما بعد قارة امريكا بعد اكتشافها، ومن هنا بدأوا بتحديد الوحدات الاقليمية التي تُعبر عن اسلوبهم في تعاملاتهم اليومية او الرسمية والتي بدأ العثمانيون بتبنيها لا بل باعتمادها ايضا[3] .

ان الاوربيون الذين كتبوا عن الشرق عامة او عن الاقليات الدينية خاصة كانوا عموما موظفين رسميين سواء في الهيئات القنصلية او في السفارات الدبلوماسية او المقيميات الرسمية الذين سكنوا مصر او العراق، بحكم عملهم وتكليفهم الرسمي، وبغير رغبة حقيقية مكثوا فيها لأجل الوظيفة او طمعا بالمال، لانهم اناس كانوا يشعرون بالملل وتظاهروا على حد قول الرحالة الالماني- الهولندي ليونهارت راوولف Rauwolf Leonhard في رحلته للعراق مثلا للأعوام

١٨٦٦-١٨٦٨ بانهم كانوا" يتظاهرون بمظهر الارواح الشقية التي تقضي ايامها في المطهر انتظاراً لفردوسِ خيالي ليست اهلاً لتفاهتها وخستها"[4] . او كانوا رحالة استهواهم الشرق وسحره لاسيما فيما كتب عنه في القصص والروايات للإحساس والشعور بذلك السحر فقدموا الى الشرق وكتبوا عنه ان سبب رحلاتهم هو"لقضاء الشتاء الجميل في القاهرة الى اجواء بغداد التي سحرتهم برومانسيتها وشرقيتها لاسيما ما كتب عنها في قصص الف ليلة وليلة"[5] . في اشارة الى سحر القصص والحكايات التي جسدها كتاب الف ليلة وليلة بحالته الادبية الشرقية الفريدة من نوعها والتي جذبت الاوربيين، وقصصه المتنوعة والمتعددة، والتي فتحت ما يمكن ان نسميه ابواب المغامرة وحب الاستطلاع بعد ان تم ترجمتها لعدة لغات اوربية أبان القرن الثامن عشر .

جاءت كتابات الاوربيين بانهم قسموا الاجناس البشرية ومن ضمنها البلاد العربية التي ركزوا عليها فكتبوا عنها بان الشرق مسلم بغالبيته واظهروا بان الاسلام معاد للأديان السماوية الاخرى فقسموا المشرق العربي من وجهة نظرهم الى قسمين"حسب الرؤية الاسلامية للعالم الى قسمين هما دار الاسلام الذي يمثل الاقاليم والدول والولايات الاسلامية التي تحكم بموجب الاسلام والقسم الثاني هو العالم الذي هو دار الحرب، وبما انه يوجد اله واحد فيجب ان يكون لديهم قانون واحد وسلطة سياسية واحدة ورعية واحد ويجب عليها حمايتهم كونهم اميين لحين اهتدائهم الى الاسلام بموجب القانون الذي اقره منذ الفتوحات الاسلامية باستخدام وسيلة مهمة الا وهي الجهاد"[6].

- العوامل التي ادت الى تدوين الاوربيين عن الاقليات الدينية

لم تظهر صورة الاقليات على المسرح السياسي او الحديث عنها مثل الحد الذي بلغته في العهد العثماني، فقبل الحديث عن تلك الصورة التي نقلها الاوربيون عنهم لابد لنا من التطرق الى الاسباب التي دفعتهم الى تدوين الكتب، اذ ان كتاباتهم اخذت حيزا كبيرا من الاهتمام الدولي تجاوزت تلك الحدود الى المخاطبات الرسمية في سجلات الشؤون الخارجية للدول الاوربية التي تغلغلت في جميع ارجاء الدولة العثمانية، ومن هنا نجد بانه كان لديهم العديد من الاسباب التي دفعتهم للتركيز والتدوين عنهم منها:

١-عهد السيطرة العثمانية وفرض سلطة الدولة

سيطرت الدولة العثمانية على البلاد العربية منذ القرن السادس عشر الميلادي ، ونُظِر اليها على ان سيطرتها بانها زمن النعمة والبركة، اذ مرت قرون عديدة رزخت فيه البلاد العربية تحت حكم الامبراطوريات والدول الجائرة، ورحبت شعوبها بالحكم العثماني ونظرت اليه نظرة المنقذ والمحرر من استبداد الحكام المحليين، وعوملت الاقليات الدينية بنوع من التسامح وفق ما اقرته الدولة العثمانية فجاءت كتابة الاوربيين عن سيطرة الدولة العثمانية نتج عنها الى التخفيف من ماسموه بحدة "التعصب الديني"لاتباع الديانات غير المسلمة والتي حكمت وفق نظام الملة – الملل – ملت The Millets system [7]، والذي أُقرَ منذ عهد السلطان العثماني محمد الثاني١٤٥١–١٤٨١م[8]، كان الهدف منه احتواء المسيحيون واليهود تحت حكمها[9].

اخذت اوضاع الاقليات الدينية منحا جديدا بموجب النظام، وسمح لهم بموجبه انتخاب الرؤساء الدينين من قبل افراد الملة نفسها واقترن تعيينهم بصدور فرمان سلطاني[10]،واصبحت ترد كلمة الملة في السجلات العثمانية الرسمية من خلال الاشارة الى ما أُطلقت عليه"فخر الملة المسيحية–فخر الملة اليهودية"[11].

جاء استحداث نظام الملة لتنظيم شؤون غير المسلمين في الدولة العثمانية ومنحهم الحرية والاستقلال التام، ليصبح جزءا من بنية الدولة[12]، لأنها كانت دولة ضد القومية قائمة على اساس الدين او الملة[13].

تطور مصطلح الملة في القرن التاسع عشر الميلادي يشير الى طائفة دينية محددة[14]، بينما نجد البعض يعده نوعا من الاستقلال او الحكم الذاتي، لأنه يتولى سلطات الحكم على افراد ملته، ويقتصر دور الحكومة المركزية على ارسال الموظف المسؤول عن جباية الضرائب بزيارة الملة مرة واحدة فقط كل عام لاستحصال الجزية[15].

أصبح نظام الملة جزءً من الحياة الاجتماعية في المجتمع العثماني، لتتهيأ له الظروف لينمو ويصبح هيئة مستقلة في الشرق الاوسط تفي بحاجات الشعوب التي كانت تضفي الانسجام مع المصالح المتضاربة[16].ويشكل نقصا كبيرا في الاهتمام بالمجتمعات الدينية في الدولة كونه قائم على فكرة النظام الاجتماعي المستند على افكار سُنت في العصور الوسطى ووقفت على احكام القوانين والعادات المسبقة التي لم تعد صالحة لان تُحكم بموجبها الشعوب العربية[17].

٢-الترويج لمبدأ حماية الاقليات الدينية

مرَ مسيحيو المشرق العربي بأصعب الظروف منذ القرن الثالث عشر الميلادي الى عصر النهضة العربية، لاسيما بعد سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨م ومن ثم السيطرة العثمانية على البلاد العربية وانتشار الفساد الاداري والتمييز، لذلك انكمش رجال الدين في كنائسهم القليلة او اديرتهم البعيدة يسجلون ملاحظاتهم وتاريخهم بخوف ورهبة معتمدين في العراق على مساعدة الاهالي وتعاون القرى المسيحية في شمال العراق وسوريا وجبل لبنان ومصر حتى بداية دعوتهم للنهضة العربية[18] في القرن التاسع عشر[19].فعانت البلاد العربية من الجهل، واستمرت مرحلة الجهل لمدة طويلة ، اذ كان وضع المسيحيون والمسلمين واليهود سيئا جدا كونها بمرحلة الجمود والانحطاط[20].

عاشت البلاد العربية حالة من الجهل عهد السيطرة العثمانية، ولم يعد الشرق الاوسط مركز العالم في العلم والفن، وساهمت الضرائب الباهضة المفروضة من قبل الولاة العثمانيون عليها في استمرارية مرحلة الجهل وكان وضع المسيحيون واليهود اكثر سوءا من مواطنيهم المسلمين[21].

وعلى اساس ذلك نجد بان الاوربيين كتبوا من وجهة نظرهم بانه يجب ان تخضع الاقلية في الشرق للاغلبية هدفوا منها بث الكراهية والحقد عند الشعوب الاوربية(الرأي العام الأوروبي) ضد المسلمين وحكامهم اي الدولة العثمانية ، فجاءت كتاباتهم"بان المسلم متعصب بالنسبة الى المسيحي فهو لا يأكل معه... والمسلمون يحملون كراهية كبيرة للمسيحيين واليهود معاً ... يحملون البغضاء تجاه الاخر وهم متذمرون، مخادعون غير مؤمنون يسعون كذلك للملذات الدنيوية وجاهلون بشكل عام"[22].

وهذا الامر ينطبق على اليهود ايضا اذ نقلوا لنا بانه طرأت تغييرات كبيرة على اوضاع اليهود منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأت فرنسا وبريطانيا تبرزان الحقوق المسلوبة لهما ومن هنا ظهر مبدا حماية الاقليات الدينية من قبل اوربا في المشرق العربي على اساس منح المساواة للجميع في الحقوق والواجبات، لاسيما ان ليهود بلدان الشرق مصالح مشتركة مع الدول الاوربية تربطها مع بعضها البعض على اساس المساواة للأقليات خدمة لمصالحها السياسية والاقتصادية والدينية وان كانت مصالح الاخيرة اقل اهمية، لاسيما بعد ان اقدمت الدولة العثمانية

على الاصلاحات في محاولة منها لوقف تدخل تلك الدول في شؤونها الداخلية والتوقف عن اثارة المشاكل الطائفية[23].

جاءت كتابات الاوربيين متناقضة الى حد كبير اذ ان ما كتبوه اعلاه عكست مخططاتهم ومصالحهم في المشرق العربي، فهم من جهة يذكرون بان الاقلية يجب ان تخضع للغالبية ومن جهة اخرى يذكرون بان المسلمون واليهود والمسيحيون يتشاركون بالسمات ذاتها مع مواطنيهم المسلمين الساكنين في الولاية ذاتها.

بدأ الاوربيون العمل فعليا بجمع المعلومات وكتابة التقارير اللازمة وظهر ذلك جليا اذ كتبوا بانه"علينا ان نحصل على المعلومات الكافية لإصلاح الدين الاسلامي ... بسبب وجود رئيس حكومة[24](في مصر) متطرف عام ١٨٨٠"[25].

ولتحقيق مبتغاهم في زرع التفرقة بين شعوب المشرق العربي جاءت كتاباتهم تتمحور حول الصراعات والحروب وكيفية اثارتها وهذا ما كتبته المس بيل في احدى رسائلها لوالدها اذ قالت: "علينا ان نوطن انفسنا لنرى عقارب الساعة تدار كثيرا الى الوراء ...عزيزي الوالد...الا تعتقد بان الحروب والثورات يمكن ان تعتبر من الاشياء الاعتيادية"[26]. لذلك"استخدمت قوات الليفي الاشورية[27] لتأديب العشائر الكردية"[28]. فالعراق هوضمن المجموعات القبلية الكبرى تمتلك عددا من المسلحين والسيطرة في المدن لكبار الملاك العقاريين والتجار يوجد بينهم من اليهود والمسيحيين"[29]. ولم يكن بين السكان (فلسطين –القاهرة – بغداد) وحكامهم الجدد ما يجمعهم في صعيد واحد...فقد كشف الاختلاط بينهم عن اعظم الاختلافات في العقلية العربية"[30].

٣- انهاء السيطرة العثمانية على البلاد العربية

بدأت كتابات الاوربيين نحو تحقيق اهدافهم العديدة للقضاء على الدولة العثمانية بصورة علنية لاسيما بعد ان اثيرت المسالة الشرقيةEastern Question[31].وظهرت على المسرح السياسي اذ كتب الاوربيون بان العثمانيين اصبحوا عامل هدم للمجتمعات المشرقية وللعالم بأجمعه قائلين"ان الدولة العثمانية اصبحت تشكل تهديدا للعالم... الحقيقة ان الحكم العثماني اتى الى العالم ليهدم لا ليبني" ويظهر ذلك من كل المدن التي زاروها ومن ضمنها الموصل[32].

كان الاوربيون بارعين في نقل الاحداث وفبركتها حسب اهوائهم للضغط على السلطات الحاكمة أي الدولة العثمانية لغرض استخدام الاقليات كورقة ضغط لانهم كتبوا بانه "يجب اقتسام املاك الرجل الضعيف للذين يعانون من الفساد وعيوبه لأنه موجود حيث توجد الاضطرابات"[33]. مشيرين بذلك الى الدولة العثمانية وليصبح اللقب الذي إشتهرت به منذ منتصف القرن التاسع عشر. ويرجع سبب ذلك إلى الهزائم التي تكبدتها على يد الدول الأوروبية وفقدت بموجبها الكثير من أراضيها، فذهبت هيبتها ومكانتها بين دول العالم وأخذت الدول الأوروبية تخطط لاقتسام أملاكها الواسعة.

ركزت مدونات الاوربيين بالدرجة الاساس وبصورة اكبر منذ بداية القرن العشرين للقضاء على الاسلام من خلال اثارة المشاكل الطائفية بينه وتحديدا على الدولة العثمانية كونها تدعي بانها حامية السُنة لانهم يشكلون الخطر الاكبر في الشرق العربي"الخطر العظيم يكمن في قوة الدولة العثمانية بصفتها الدولة الاسلامية الاولى"[34].

كانت كتابات الاوربيين تركز دائما على التاكيد على وجود خلافات جوهرية في الدين الاسلامي بمذهبيه السُني والشيعي، ولكن طبيعة الخلاف بين المذهبين كانت قد غذته كل من الدولة العثمانية التي تدعي بانها حامية السنة وبين الدولة الصفوية التي ادعت بانها حامية الشيعة لكنه في عمقه صراع على المصالح لأن كلتا القوتين ارادتا أن تظهر بمظهر زعيمة العالم الإسلامي، وإقليمي لأن لكل منهما مصالحها الإقليمية الحيوية التي تسعى للحفاظ عليها وتنميتها، ومحاولة كل منهما تقديم الاغراءات الكبيرة لكسب المؤيدين لها من البلاد العربية"شارك كبار اعيان المسلمين بإدارة الدولة العثمانية وكانوا من المسلمين السنة وقد راوا في تلك الدولة الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الاسلام في وجه التهديد الاوربي"[35].

ان الذي اظهرته الكتابات الاوربية ومن وجهة نظرهم بان الاسلوب الذي اتخذته الدول الاوربية فيما يتعلق بإثارتها للمسالة الشرقية ضد العثمانيين لم يكن سوى وسيلة لطريقة"التفكير في كيفية ايجاد المسكنات العاملة"، اذ ان طريقة التفكير تلك قصدوا منها بان الانسان يمر بمرحلة في حياته يشعر فيها بعدم قدرته على التفكير او الإبداع ويكون محاصراً بافكار محددة وهي هنا

بالتأكيد تلك الافكار المفروضة من قبل الدولة العثمانية، مما يضطره الى اللجوء الى الاقوى لغرض حمايته وكيفية الحصول على حقوقه[36].

ان مدونات الاوربيين جاءت لتسلط الضوء على الخلافات في المذاهب بالمجتمعٍ الشرقي عامة بما معناه استحالة التعايش وحتمية التنافر والقطيعة بين المسلمين بمختلف مذاهبهم والاديان الاخرى من جانب اخر، مع اظهارها بمظهر عدم امكانية التعايش والتواصل والوِحدة في ظل المجتمع المدني، الا ان الذي لا يستطيع احد نكرانه بان ابناء المذهبين وابناء الديانات الاخرى شهدا قروناً من التعايش السلمي، أنتج حضارات وثقافات تحولت إلى إرث إنساني، وليس فقط إرثاً إسلاميا، وان الصراع الذي كان يغذيه المحتل او الحكومات لم يحدث أن تحول إلى مواجهة مباشرة بينهما[37].

من ذلك يظهر جلياً بان ردود افعال الدولتين(العثمانية والفوية) وصراعهما على المصالح جاءت في كتابات الاوربيين الذين قدموا او عاشوا في الشرق وصورتها على ان الاقليات الدينية تعيش في"مجتمع متنافر تماماً" انعكست بالتالي على اوضاعهم الاجتماعية والسياسية بشكل يظهرها للعيان بانه اقصاء الاخر وتثبيتا لهيمنة الفكر الواحد المنتصر، والقضاء على التنوّع والاختلاف والثراء الذي يحمله فكر الانسان الآخر، ومحاولة لحبس الفكر في مآسي الماضي وحروبه المدمرة ، فضلا عن القضاء على كل ما من شانه الخروج على ما هو مألوف ونبذ التقليد[38].

عموما صور الاوربيين الشرقيين وهم كمن القاهرة لا يمكن السيطرة عليهم الا تحت"اسلوب التهديد وبالعنف لانهم غليظين، واذا لم يتم التعامل معهم بهذا الاسلوب فان السفر او الامور الاخرى ستتأخران وسيعيقون المصالح الاوربية في الولايات العربية"[39].

اما الشرقيين عموما فهم يعانون من عقدة العزوف من الحاكم وهذا واضح جدا من خوفهم من تقديم التظلم او الشكوى وهذا حال الشرقيين وحال حكامهم ومنها مصر[40].وفي حال تهديدهم من قبل الاوربين فان المسلمين يجتمعون"كلهم على تحدي قوات الدول المسيحية–الاوربية"[41].

رابعاً: اسباباً اخرى

هناك اسباباً اخرى دفعت الاوربيين للكتابة ونقل صورة عن الاقليات في الشرق الاوسط وعلاقاتهم بمواطنيهم المسلمين بصورة مغايرة عن الواقع ، اذ بدا واضحا بان كتاباتهم جاءت لاثارة

التفرقة الدينية والمذهبية في المجتمعات الشرقية تنفيذاً لسياسة الكيان الصهيوني لتحقيق اهداف الصهيونية العالمية واثارة التفرقة بين المسيحيين انفسهم من خلال مايعرف "بالمسيحية الصهيونية" ومجئ السيد المسيح(ع) ليحكم الف عام على الارض لينشئ حكم الالفية من خلال التطرق الى المواضيع الدينية واثارة الاسئلة المهمة منها "هل سيظهر المسيح...ومتى؟"[42]. وهل "سينشر سلطانه على الارض او هل سيظهر يوم الحساب فقط؟...متى سيجئ الدجال"[43].

يعد الاحتلال الفرنسي لمصر ١٧٨٩-١٨٠١م احد الدوافع التي ادت الى تدوين كتاباتهم اتضحت اهمية الموقع الاستراتيجي للبلاد العربية واتضح الضعف العسكري للدولة العثمانية، فضلا عن تغلغل الافكار الاوربية اليها لاسيما افكار الثورة الفرنسية بما رفعته من شعارات الحرية والاخاء والمساواة، التي كانت الحدود الاولى للتقريب بين افكار ما بدأوا يثيروها في اشارة الى ان الاسلام يكفر الاخر وهذا الامر عار عن الصحة فكتبوا عن "الكفار وعقل المسلمين...بدات افكار عصر النهضة والتنوير والثورة الصناعية تتغلغل بصورة كبيرة والتي كانت افكارا مسيحية بوسائل دفاعية عقلية اسلامية دون ان يلاحظوا ذلك"[44].

كان القرن التاسع عشر بداية لانتشار الافكار الاوربية كانتشار مفهوم المواطنة كاساس للتعددية في البلاد العربية التي بدات الدولة العثمانية سياستها تلك باستخدام نظام الاصلاحات لاسيما خَطَّي شريف كولخانةTanzimatm Fermanı وهمايونhümayun Fermani [45]، للوقوف بوجه التحديات الاوربية التي بدأت تتغلغل فيها وفيها بدات فكرة القومية تظهر الى الوجود في البلاد العربية[46]. متناسين بان مفاهيم التعددية متواجدة منذ القدم وهي سُنة كونية خلقها الله سبحانه وتعالى لإقامة العلاقات الانسانية.

ان ما نتج عنه فيما ذكرناه ميل الاقليات لدعم الدولة العلمانية بعيدا عن الدين الذي التقت دعواتهم مع دعوة النخبة الراغبين بإبعاد الجمهور عن السلطة السياسية، وهو بالتأكيد لا يتناقض ابدا مع هويتها الدينية ويظهر كضامن لحقوقهم، بينما في المقابل نجد الاغلبية يشعرون بانهم سيفقدون الكثير زمن هنا يتم اتهامهم بكونهم متحالفين مع الخارج[47].

يتضح من ذلك بان ميل الاقليات الدينية للبحث عن الذات في المجتمع الذي يتمايزون فيه دينيا، نظر اليه مواطنيهم المسلمون بانه خروج على حكم الدولة وذاتها السياسية الا وهي السلطة

السياسية الاسلامية كونها تشكل الاغلبية، لتظهر العلمانية بمظهر الراغبة بالقضاء على الهوية الاسلامية للدولية، بينما في حقيقة الامر بان تلك الذاتية التقت مع دعوات النخبة السياسية من الجيل الاول التي تشكلت افكارها مع نهاية القرن التاسع عشر، وبدات تدعو بقوة الى فكرة القومية العربية واستخدام اللغة العربية ورات بان ذلك لا يتناقض مع الاسلام ايضا باعتباره دين الاغلبية.

ولتحقيق ذلك فان الاوربيين في كتاباتهم دائما ما وضعوا امام اعينهم خيارات متعددة حتى وان جلبت الدمار والموت للشعوب منها خيارات افتعال الازمات والاضطرابات وابرزها خيار الحرب الذي سيبقى دائما في الحسبان وقائم في كل زمان واي مكان لاسيما العراق ومصر ذات المجتمعات المتعددة الاديان والمذاهب والطوائف والقوميات فكانت مدوناتهم تعتمد على انه" يجب ان نقوم به للحيلولة دون حصول اتحاد عربي تركي اذ لا يخفى ان الدولة العثمانية كانت تدس يمينا وشمالا من اجل ان تكسب العرب الى جانبها حتى انه قد قيل بان ابن سعود اقدم الرؤساء العرب قد اقنع للانضمام الى الترك فان صح ذلك يجب ان نتوقع نشوء اضطرابات خطيرة فيما بين النهرين ومصر "[48].

جاءت كتابات الاوربيين للتركيز اكثر على ما يمكن ان نسميه سياسة العزلة العثمانية التي فرضت لاربع قرون نتيجة السيطرة العثمانية على البلاد العربية فتوقعوا"ان تغييرا ما سوف يطرا حتما في هذه الاراضي التي تعيش في عزلة طويلة مع تغيير الازمنة والاحوال والظروف كما ان اختمار الافكار والممارسات الغربية سوف يخلق رؤية جديدة اكثر شمولية عن الناس والامور في هذه الاراضي المحافظة منذ زمن بعيد التي يقطنها احفاد اسماعيل المنعزلين والوهابين المتشددين والتي ظلت تعيش على مدى قرون عديدة وراء الكواليس معزولة عن بقية انحاء العالم...هل ستبقى زاوية الرؤية الجديدة وراء التغيير الحتمي الذي يلوح في الافق على الدوام ام لا بقي ان نرقب ذلك ونرى ماسيحدث"[49].

صورة مسيحيو ويهود مصر والعراق في كتابات الاوربيين ابان العهد العثماني

ان كتابات الاوربيين عن الاقليات الدينية المتواجدة في المشرق العربي في العراق ومصر جاءت وبصورة ظاهرة للعيان كجزء مهم من الموروث الاوربي والتي يمكننا ان نقسمها كالتالي:

١-**المسيحيون**

إن الحديث عن مسيحيي المشرق عامة في العهد العثماني يستدعي توضيح العلاقة بين المسيحيّة وأرض الشرق الّتي فيها نشأت وانطلقت منها، وتسليط الضوء على الأصول المشرقيّة للمسيحيّة، سيما وان التراكمات التاريخيّة ادت إلى التباس الصورة في أعين العديد من الغربيين، فأصبح بعضهم يتشدّق عجبًا إذا عرف أنّك "مسيحي– عربي" لأنّهم يخلطون بين العروبة والإسلام، ويعتبرون أنّ مفهوم الإسلام ملازم للشرق، بينما مفهوم المسيحيّة ملازم للغرب، بالرغم من أنّ الشرق هو مهد الديانتين معًا والحاضن لأراضيهما المقدّسة فالمسيحيّة متأصّلة في الشرق، رغم الاضطهادات التي واجهتها ومازالت، وذلك بحكم نشأتها المشرقيّة : فمن الشرق إنطلقت، وفيه ترسّخت قبل أن تنتشر في أرجاء العالم(50).

ومن هنا دون الاوربيون عن الاقليات الدينية ومذاهبهم وطوائفهم في الشرق الاوسط التي لا تخلو تلك الكتابات من التقليل من شان الاديان السماوية ، لاسيما وان الاديان عامة تدعو الى العمل للحياة الآخرة ولا تدعو الى حب المال فكتبوا"اذا كنت تاجرا ولا تريد الافلاس فلا يسعك ان تسير تجارتك طبقا لتعاليم المسيحية الاولى، وليست بريطانيا وحدها هي التي تعمل بهذا المبدأ"(51).

اما عن العلاقات الاجتماعية بين اتباع الديانات السماوية الثلاث والاديان الاخرى فنجد بان كتاباتهم لم تخلو من نقل بعض الحقائق كما هي فكتب القائد البريطاني جيمس فيلكس جونز James Felix Jones الذي قدم الى بغداد عام ١٨٤٦ وقبلها كان متواجدا فيها كونه المسؤول عن سفينة المقيمية البريطانية، في مذكراته عن الحرية الدينية القائمة بين الاديان في ولاية بغداد، بان اليهود والمسيحيون والمسلمين الساكنون في بغداد يعيشون في جو من التسامح الديني واضاف "من المحتمل الا نستطيع نحن ان نشاهد مثل هذا التسامح الديني بين هذه المجموعات كما يظهر في بغداد .فمن الممكن ان يشاهد اليهود والمسيحيون دائما على ظهر الخيل. بينما يجبر اخوانهم في اماكن اخرى(يقصد مصر) اما على السير على الاقدام او ان يمتطوا الحمير كدلالة على حالة الوضاعة او الدونية"(52).

جاءت في كتابات الاوربيين بان مجتمع البصرة يمثل متحفا شاملا للأعراق والاجناس المتنوعة ففيها تجد المسيحيون وبطاركتهم واليهود وحاخامتهم ...الخ(53). وهذا ما أشاروا اليهم ايضا في مجتمع الموصل اذ ذكروا بان المدينة مكتظة بالسكان وتحتوي كل الاديان والطوائف وان مجتمع

الموصل اقل محافظة من مجتمعات الولايات الاخرى لان النساء غير محجبات وطريقة لباسهم تشبه الملابس الاوربية[54].

نقل الاوربيون صورة عن الاقليات في الشرق التي من ابرزها "الاقباط والاراميين–السريان" والتي جاءت الى حد كبير مطابقة لمواطنيهم المسلمون، فكتبوا عنهم مثلاً بانهم محافظين "مسيحييتهم محافظة جدا مثل اسلامية المسلم" لا يلتقي الدين والمجتمع هنا فاتباع الديانة المسيحية يتفاخرون على غيرهم، والمسيحي مرن اكثر من المسلم اذ لا يستطيع الاخير التكيف مع التغيير، فالقبطي مثلا من الصعب ان يتحول الى غير مذهب او ان يطور ذاته ليس لأنه قبطي بل لأنه شرقي، فضلا عن انه محاط بأناس معاديين للتقدم(يقصد مواطنه المسلم)، والمسيحي عموما قابل للتحول ويتقبل التقدم والتطور في الجوانب الحياة الاجتماعية والارتقاء بها اكثر من المسلم لأنه الاخير متعصب[55].في اشارة منهم الى ان المسلم تكون مواقفه او تصرفاته ثابتة لا تتغير ، ويفقد الكثير من الجهد ولا يصل الى هدفه كونه ينساه لاسيما فيما يتعلق بالراي والفكر المعارض لأفكاره التي ورثها، وهذا امر ايضا يتناقض مع ما كتبوه للأسباب التي ذكرناها مسبقا لاسيما بعد ان بدأت فكرة القومية العربية تنتشر والتي تبناها المثقفون المسلمون والمسيحييون معا.

كتب الحاكم المساعد لمدينة القدس هاري لوقا Sir Hary Lukach فدون اثناء رحلته الى الموصل عام ١٩٠٧ انه من بين الاقليات الدينية التي تسكن العراق المسيحيون النساطرة الذين يطلق عليهم الاشوريون واليعاقبة من الكلدان والكاثوليك السريان، الارمن، فضلا عن اليهود، ونجد بينهم"اناسا دمثي الاخلاق عانوا منذ فترة طويلة من الاضطهاد يسمون الايزيدية[56] .الذين الههم الاساسي هو الشيطان فقط"، والصابئة المندائين اتباع يوحنا المعمذان ووصفوهم بانهم"فرقة من صائغي الفضة ومعتقداتهم تعود الى اشخاص يعبدون القمر "[57].

وهنا نود الاشارة الى ان كتابات هاري لوقا عن مسيحيي العراق لم تكن دقيقة الى حد كبير ن لابل فيها معلومات خاطئة، فالمعروف بان التقسيمات تأتي على اساس الاجناس ثم المذاهب الدينية فعندما نقسم الاجناس التي يتكون منها المسيحيون الاشوريون– الكلدان– ثم الاراميون–السريان – والموارنة(نسبة الى مار مارون الانطاكي حاليا)– الارمن، ثم تاتي تقسيماتهم المذهبية فقد يكونوا سريان كاثوليك او سريان ارثوذكس او ارمن ارثوذكس او ارمن كاثوليك وهكذا[58].

بينما ذكر رحالة اخرون بانه في الموصل اربع فرق مذهبية وهم الموارنة والروم والنساطرة والارمن، فضلا عن تواجد مقر للاباء الكبوشيين[59]. والسريان المشارقة من اتباع نسطور، هؤلاء لا يفقهون شئيا عن اصولهم التاريخية واكبر ضلال بينهم هو الجهل[60]. وانه لا توجد في بغداد كنائس للمسيحيين ووفدوا اليها منذ سنوات قليلة هربا من الحروب والقلاقل، ولا يسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية وعندما يريدون اقامة القداس فانهم يجتمعون في بيت ويقيمونه سرا[61] .

ونتيجة للأسباب اعلاه نجد الاوربيين في رحلاتهم وكتاباتهم ومخاطباتهم الرسمية يركزون مثلا على ابراز الخلافات المذهبية وبالتأكيد هذا يعود لاستخدامها لاحقا وتوظيفها خدمة لمصالحهم الخاصة بمحاولة كل كنيسة كسب اتباع الكنيسة الاخرى من جهة والضغط على الدولة العثمانية من جهة اخرى، فقد اشارت كتاباتهم في وثيقة رسمية تعود لعام ١٨٨١ الى الخلافات بين الكنيستين السريانية والكلدانية بسبب اراضي الاوقاف التابعة لهم وركزت بشكل اكبر على التأكيد على عدم اهتمام السلطات العثمانية بواقع الاقليات في الموصل، في محاولة من بريطانيا لكسب مسيحيي العراق وضمهم الى المذهب البروتستانتي[62] .

ومن رحم تلك المخاطبات الاوربية بداوا برسم سياستهم الا وهي استخدامهم لسياسة فرق تسد فنراهم تارة يركزون على الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية، فيشكرون المتعاونين معهم على المعلومات المهمة التي كانوا ينقلوها لهم موظفيهم في الموصل، ويصفونهم بعبارات تلائم مستوى تفكيرهم، وهنا يركزون على ادق التفاصيل من انفصال الكنيسة الكلدانية عن الكنيسة النسطورية الشرقية القديمة عام ١٦٨١م، والتي اصبحت بطريركية مستقلة عام ١٧٧٨ ، واصبحت تابعة لكنيسة روما الكاثوليكية في عهد المطران هرمزد يوحنا، وظلت كرسيا رسوليا قائم بذاته بلا منازع، ومما جاء فيها" يؤسس الكلدان المتشددون معارضتهم لعقيدتهم المعصومة ...فهي سخيفة وطفولية، الحق معهم ولكن لا سبب لندعمهم" التي يتضح فيها محاولة البروتستانت استقطاب الكاثوليك الى صفوفهم[63] .

وفي الوقت نفسه يشيرون الى مشاعر الاحتقار التي تحملها السلطات العثمانية ضد رؤساء الكنيسة وتهميشهم وحرمانهم من تولي الوزارات ، لا بل استخدام اسلوب النفي ومنع دخولهم الى مدنهم، مما يعيق اجتيازهم للازمات والكوارث[64]. في اشارة الى ضرورة تدخل الدول الاوربية لاسيما

بريطانيا وفرنسا لحمايتهم واسترجاع حقوقهم من السلطات العثمانية في تناقض واضح لكتابات الاوربيين اذ كان نظام الملة معمولاً به حتى نهاية العهد العثماني.

ان الخلاف بين الكلدان انفسهم سببه كما كتب الاوربيون كانت بسبب السيادة، اي قبولهم سيادة البابا عليهم فهي ليس من حقهم الاعتراض فالاعتراضات ضد سلطة البابا كانت عبثية حسب وجهة نظرهم، لان القبول بسيادة البابا يعني الاعتراف بسلطته المطلقة لوضع مؤسساتهم "القديمة والعزيزة تحت رعايته...لان السيادة بدون ممارسة السلطة الدينية لا يمكن ان تتواجد بشكل جيد ...وليس من العبث الاعتراف بالواحد ورفض الاخر" على حد تعبيرهم[65] .

عندما كتبوا عن استجابة كنيسة روما لمطالب الكلدان والمسيحيين عموما فيما يتعلق بشؤونهم الدينية وبإعلانهم اتباع المذهب الكاثوليكي انعشت قلوب الاوربيين وأفرحتهم بعد الالام التي تعرض لها اتباع هذا المذهب، ونجد هنا استجابة تامة للبطريرك الذي اثبت حكمة وبذل جهودا كبيرة لخدمة رعيته[66].

يصف الاوربيون رجال الدين المسيحيين الذين يرفضون التعامل مع الدول الاوربية بانهم غير مرغوبين يرفضون التعاون معهم بانه لهم"عقولهم اصبحت ضعيفة جدا وغلبت عليهم الشيخوخة، في المقابل فقد واجه ازدراء والاهانة من قبل السلطات ..بالتالي ان جميع ما نفعله هو لحماية حقوقنا"[67] .

وعن التجار العاملين في مجال التجارة فنجد الرحالة والصحفي البريطاني جيمس بنكهامJames Silk Buckingham اثناء زيارته للعراق في عام ١٨١٦م ، اذ نجده ينقل لنا صورة عن التجار المسيحيين بالموصل فيكتب عنهم"بانهم متحررين ومتعاطفين مع بعضهم البعض اكثر من مسيحيي الشرق الاخرين، ويبدو عليهم الانسجام"[68].

كتب عنهم الرحالة ليونهارت ايضا بانهم مشهورون بالأمانة فاذا غش احدهم زملائهم في التجارة فان الاخر يبلغ عنه وهم قليلو الحديث واذا صعدوا للتجارة مع سفن الهند ومما جاء في وصفهم اثناء رحلته للعراق بانهم "هم قليلو الكلام لا يتحدثون الا قليلا ولا يكشفون عن هويتهم وهذا عائد ربما الى الخوف من السلطات العثمانية الحاكمة وتلافيا لحدوث المشاكل مع البحارة الاخرون"[69].

وهذه الاوصاف مقاربة الى الصورة التي نقلها لنا الرحالة هنري كاوبر Henry Swainson Cowper في رحلته الى العراق عام ١٨٩٣ لنجده يكتب"البحارة المسيحيون الكلدان الساكنون بقرى الموصل ماهرين قريبون من الهئية الاوربية منها الى الشرقين، ورغم ملامحهم التي تدل على النبل والاصالة الا انك تجد البساطة في تعاملهم، وهم بعيدون عن التملق والتكلف، ويعملون بنشاط وجد على غير عادة الرجال الشرقيين، وهم يبتعدون عن المشاجرات والمشاحنات وفي اعتقادي انهم يطبقون المثل القائل الهروب افضل من القتال، وزيهم يشبه ايضا زي المسلمين المتكون من الجبة الزرقاء والعمامة ولا يتكلمون بلغتهم(اي اللغة السريانية)بل يتكلمون باللغة العربية"[70].

فمن جانب نجد بأن الاوربيون بدأوا ينقلون صورة الواقع الذي شاهدوه كشهودِ عيان ايضاً لا في رحلاتهم فقط بل حتى في مخاطباتهم الرسمية فكتبوا عن حجم الاضطهادات التي كانت تمارس ضد المسيحيين في الموصل من قبل السلطات العثمانية والتي ازدادت مع بداية القرن العشرين[71].ومن جانب اخر اوضحوا في الصورة التي نقلوها لنا حجم الفظائع والاضطهادات التي كانت ترتكبها العشائر الكردية بالتعاون مع السلطات العثمانية في عام ١٩١٥ من القتل والاعتداءات وحرق المحاصيل ضد المسيحيين المسالمين وسلب الاغنام ومصادرة لمحاصيلهم الزراعية بأكمله وسرقة اثاثهم المنزلية، واستخدام اسلوب التعنيف من خلال استخدام الضرب المبرح وهذا يبين لنا زخم الفظائع التي ارتكبتها السلطات العثمانية ضدهم من خلال قواتها قوات الجندرمة والدرك، فضلا عن الانتهاكات التي كانت تمارس ضد المرأة وقتل الابرياء التي وصفوها بالهمجية"فهذه الهمجية والوحشية من قبل الحكومة التركية(العثماني)مستمرة التي تنطوي على اهانة امة"[72].في اشارة الى ان هذه الاعتداءات من قبل قوات الدرك والجندرمة التي تمارس ضد المسيحيين تفتقد الى النزعة الانسانية، وهي في الوقت نفسه تعبير عن حجم الاذلال المستخدم من قبل الدولة العثمانية ككل ضدهم، لنجد ظاهرة الاعتداءات على املاك المسيحيين وعلى ارواحهم ونسائهم تظهر للعيان بشكل غير قابل للشك.

قدم الاوربيون وصفا للعشائر المسيحية الساكنة في عقرة من اشد الناس وابرز من كتب عنهم المقيم البريطاني والمستشرق وعالم الاثار ريج Claudius James Rich ١٧٨٧ – ١٨٢١م الذي قدِم الى العراق عام ١٨٢٠ بانهم قساة" واكثرهم حقدا ومن المتقلبين في مزاجهم وانفعاليين

وكثيري الصراخ، وان أي تعرض لهم تعرض فان حياة الشخص معرضة للخطر لاسيما اذا كان غريبا ما قد يؤدي الى هلاكك"[73].

كتب فرانسيس همفريز Sir Francis Humphrys اخر مندوب بريطاني في بغداد في ستينات القرن التاسع عشر مانصه" نحن هنا بتفوق اخلاقنا بالقوة الالهية وبحكم الظروف، وهي ميثاقنا ، ونحن نعمل افضل ما بوسعنا للمواطنين تحكمنا ضمائرنا وليست ضمائرهم(أي العثمانين)محاولين بذلك جاهدين لإيصال الفكر الاوربي الذي هو وبحسب ادعائهم مدركين بأهمية الضمير ومراعين الاخلاق ومحاسبين انفسهم في الحياة اليومية التي يعيشونها معتمدين في ذلك على القوة الالهية[74].

اما كتابات الأوربيين عن مصر جاءت لتقدم وصفا لها منذ انتشار المسيحية فكتبوا بان"المسيحية اسست لها في الاسكندرية كرسي القديس مرقس واصبحت في السنة السابعة لحكم الامبراطور نيرون كرسي بطريركي ويتكون منها المسيحيون الاقباط ذات الغالبية المسيحية في مصر"[75].

جاءت كتابات الاوربيون من كون الاقباط يشكلون الغالبية العظمى متقاربة الى حد ما مع بعضها البعض من مسيحيو مصر عامة كونها اكبر طائفة دينية في الشرق الاوسط عامة، فكتب علماء الحملة الفرنسية اثناء تواجدهم في مصر ١٧٩٨-١٨٠١ بان الاقباط بينهم الارثوذكس ومنهم الكاثوليك الذين يتبعون كنيسة روما ومنهم وبحسب كتابات الاوربيين"الهراطقة"، فضلا عن الروم والارمن والموارنة، وهم أي -الاقباط -يعتبرون نفسهم احفادا للفراعنة -المصريين القدماء- وملامحهم تشبه الملامح الافريقية، ولذلك ظل جنسهم نقيا عن الاغريق، ومنذ عهد الاسكندر المقدوني اصبحوا طائفة منعزلة تحمي حالها من الغزوات(أي في فترة حكم المماليك)، وماتزال متواجدة الى اليوم التي تشكل فيه الجزء الاكبر من السكان في مصر[76].

كتب الاوربيون عن التحسن الذي طرأ على اوضاعهم في عهد الوالي محمد علي باشا ١٨٠٥-١٨٤٨ وعهد اسرته من بعده فيذكر المؤرخ كاميرون عاشت "الجالية القبطية في ظل التسامح الذي اشاعه محمد علي .. رغم انف الطرف المسلم القديم...بطل الاسلام"مع التركيز على وصف الاقباط بالجالية وان التحسن جرى رغم عدم قبول الاخر وهو المسلم وهذا امر واضح بان الغرض منه اثارة

التفرقة بين المواطنين المصريين الذين عاشوا اخوة في الوطن[77]. وهذا ظهر جليا عندما اتيحت لهم الفرصة لإقامة العلاقات الحسنة بين علماء الازهر والرهبان، ومحاولاتهم الجادة لاقامة جسر للعلاقات الانسانية بين الطرفينوهذا بالتأكيد الامر الذي لا يرغب بحدوثه الاوربيين لانه يهدد مصالحهم المباشرة[78].

كتب الاوربيون بأن رهبان الاديرة من الاقباط كانوا يعاملون السياح والحجاج منهم بالأخص معاملة ودية، فيها عبارات الترحيب الا انه مع ذلك فان لغتهم ركيكة ولم يصادف ان كانت هنالك اية نظرة عدائية منهم[79].

بينما كتب البعض الاخر من الاوربيين بان"الاقباط كانوا يعيشون في الظل، فضلا عن تعرضهم للمضايقات والاهانات، وكانوا يتولون جميع الوظائف لدى البكوات والاوجاقات وكبار الجيش"[80].

وبعد مراجعة لسجلات التسجيل العقاري يتضح فيها ان الاقباط كانوا هم المسيطرون على البعض الوظائف الادارية فيها منذ بداية عهد المماليك ١٢٥٠م وحتى الاحتلال الفرنسي لمصر ١٨٠١-١٧٩٨، كانت هذه من ضمن وصف الكتابات الاوربية عنهم هذا من جانب، ومن جانب اخر كتبوا بان الاقباط"ولا يخلون من بعض العيوب التي هي نتيجة حتمية لحالات الاذلال التي تعرضوا لها بسبب الحكم العثماني، فغالبيتهم يتصفون بالجشع وباخلاق المرتزقة... وهذه بالتاكيد هي مسيرة الشعوب المقهورة على مدار التاريخ، فالتقاعس هو النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال"[81].

ركز الاوربيون في كتاباتهم على الاقباط منذ بداية القرن العشرين للمطالبة بحقوق اكثر، لاسيما بعد حادثة الاغتيال لرئيس الحكومة المصري بطرس غالي[82]، اذ عقدوا مؤتمراً في أسيوط سنة ١٩١١، وعرضوا مطالبهم على الحكومة المصرية وإلى الحاكم البريطاني في مصر، تضمنت إغلاق المدارس ودوائر الدولة أيام الآحاد، وتعيين الأقباط في المناصب السيادية، فضلاً عن تخصيص مبالغ من الحكومة للمدارس القبطية ، وقد استجابوا لذلك وتمكنوا في المؤتمر من إنهاء تلك الأزمة[83].

ان تركيز الاوربيين بصورة اكبر كان بخصوص امر مهم وقاعدة مهمة استندت عليها الدول الاوربية الا وهي ضرورة ان تخضع الاقلية في الشرق الى الاغلبية هذا من جهة التي سبق الحديث عنها، ومن جهة اخرى فقد كتبوا عن معاناة الاقباط في ظل الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢-١٩١٤م فكتبوا"لقد عانى الاقباط من التعميم الذي استمر الى حد ما خلال سنوات الاحتلال البريطاني، ولكن ابرز سماتهم التعصب ويحملون كراهية كبيرة للمسيحيين الاخرين لاسيما البروتستانت، يحملون البغضاء تجاه الاخر متذمرون، مخادعون غير مؤمنون وهم يسعون للملذات الدنيوية وجاهلون بشكل عام"[84].

وفيما يتعلق بطبقة الاقباط التجارية فلم تكن كتاباتهم منصفة ايضا فنقلوا لنا صورة بانهم "وإسوة بمواطنيهم المسلمين وقعت طبقة الملاّكين المتوسطة والصغار من الاقباط فريسةً سهلةً لدين ملاّكي الأراضي الكبار والذين تجاوزت ملكياتهم على ٥٠ فدان، مما أدى إلى تدهور حالتهم الاقتصادية تدريجياً، على عكس الملاكّين الكبار والذين ازدادوا ثراءً"[85]. مستخدمين بذلك أقصى صور الوحشية في معاملة الفلاح خاصةً وأنهم كانوا يستعملون السوط لجباية الضرائب من الفلاحين، أو لإجبارهم على دفعها, وقد قدم الفلاحون عدة شكاوي ولكن لم يكن هناك آذاناً صاغية لهم[86]. الا في حالات استثنائية، اذ استطاعت الحكومة المصرية من تقليص جزء من نفوذ العمد المسيطرين عما كانت عليه سنة ١٨٨٢ وتم إبعاد المسيئين عن السلطة[87].

٢-اليهود

يعد اليهود ايضا من ضمن الاقليات المهمة في المشرق العربي وكان لهم وجود وحضور كبير لاسيما في المجال التجاري والمالي الامر الذي ادى الى تركيز الاوربيين عليهم في كتاباتهم وذلك لاختلاطهم وتعاملهم المباشر معهم فكتبوا بان لليهود ماضي ومستقبل مختلف جدا ، وحتى بداية العشرين كانوا الطائفة الاكبر واكثر تقدما من الطوائف الدينية الاخرى في العراق ويتمايزون بالتدين وتمسكهم بالعادات والتقاليد تمايزا واضحا عن الغالبية المسلمة لاسيما في نطاق مهنتهم الحضرية ، فضلا عن لباسهم ومناطق سكناهم، ويكتسب اليهود العراقيون مكانة مهمة بسبب ثرائهم ونفوذهم الاقتصادي، وفي اوقات معينة تحررهم من الاضطهاد، مع ان الامر لا يخلو قط من مظاهر النقص او الدونية فيما يتعلق بالناحية الاجتماعية فكتب الدبلوماسي البريطاني ستيفن

همسلي لونكريك وفرانك شتوكس Frank Stokes و Longrigg Stephen Hemsley في وصفهما للمكون اليهودي في وتواجده العراق قائلاً "بغداد في عام ١٩١٤ كانت مدينة يهودية اكثر من كونها عربية، وما من بلدة في العرق لا توجد فيها افراد من هذه الطائفة المثابرة المطيعة للقانون"[88].

جاءت كتابات الاوربيين عن اليهود لتظهر عليها خصوصية الدين والانغلاق على المجتمع ، فكتبوا عنهم بان تاريخهم امتاز بالطابع التقليدي اذ كانوا يميلون الى التجمع وفق التجمعات الاثنية والاجتماعية الخاصة بهم، لكن الامر اختلف منذ القرن التاسع عشر واخذ يأخذ منحا اخر، واثر عليهم من جميع النواحي الثقافية والاقتصادية لا بل حتى السياسية[89].

ذكر الاوربيون بانهم "أي اليهود" كانوا متمركزون في قلب المدينة جنباً الى جنبٍ الجاليات الاوربية كونها تسيطر على التجارة وبطريقة كما وصفوها بـ" شاذة جدا"، اذ ان وصفهم بالشاذة جدا الا هو تعبير للابتعاد عن الوضع الطبيعي المتعارف عليه في المجتمعات التي عاشوا فيها وخروج عن القاعدة لاسيما بعد ان خرجوا عن الحارات التي عاشوا فيها الى المدن والاحياء التي انشئت بعد ادخال الاصلاحات من قبل الدولة العثمانية والتي انعكست على ولاياتها العربية، ومن وجهة نظر الاوربيين فان هذا الامر غير مقبول بينما في الحقيقة ان اختياراتهم تلك كانت وفق الاصلاحات والتطورات التي حدثت في الدولة العثمانية عامة[90].

كتب عنهم البحارة والمغامر البريطاني جيمس ريموند ولستيد James Raymond Wellsted اثناء رحلته للعراق" من المتعارف عليه بان اليهود اشتهروا بحرفة الصياغة واطلقوا عليهم الجوهريون الوحيدون في بغداد هم اما من اليهود او من المسيحيين، وكانوا يستعملون انواعا من الذهب النقي وهم يطورونه باستمرار بالاعتماد على الطرق الاوربية الحديثة[91]. فضلاً عن مهنتهم التقليدية الا وهي الصرافة التي كانوا يمارسونها بحرية تامة في القاهرة في حارة خاصة بهم اطلق عليها حارة اليهود التي يتواجد فيها سوق خاص بهم وهو سوق الصاغة، كما انهم عملوا في دار سك النقود، وقاموا بدور الوسيط في التجارة الخارجية في البيوتات الاجنبية، لاسيما اولئك الذين هجروا من اسبانيا، وعملوا بالربى واقراض العثمانيون وبذلك توثقت علاقتهم مع قوات الانكشارية، وعملوا في كملتزمين وموظفين رسمين للدولة وسيطروا بذلك على ادارة الجمارك، وبذلك

نافسوا مواطنيهم المسيحيين بذلك، فمثلا نجد التنافس التجاري بينهم عكسي فأي تحسن اقتصادي للمسيحيين كان يرافقه تدهور في الاحوال الاقتصادية لليهود والعكس صحيح ، مما كان يؤدي بهم بالنتيجة الى الركود الاقتصادي في المجتمع بأكمله ويؤثر على الاقتصاد المحلي للولاية [92] .

ونتيجة لعملهم كوكلاء للبيوتات التجارية الاجنبية فان الاوربيون من خلال كتاباتهم راوا بان" الحكومة القوية التي تعمل الى جانب الحق يسهل عليهم اظهارها بمظهر الحكومة المستبدة والظالمة ،لان العالم لا يصدق بان الحكومة الضعيفة هي التي تسيء استخدام السلطة باستخدام لغة الفصاحة والعبارات المنمقة، ان تلك سياسة مرسومة ويجب ان تنفذ بحذافيرها عن طريق اثارة الازمات المستمرة"، ويجب ان تبقى بريطانيا هي صاحبة السلطة في البلاد[93].

ففي بغداد نجد بانها كانت مأهولة بسكانها ولكن بسبب حكم العرب والاتراك والفرس قلت أعدادهم بسبب الاستبداد وسوء ادارة الحكام واصبح سكانها يعيشون في"حالة مزرية" في اشارة الى الاضطهادات التي بدأت تلاحقهم بداية القرن العشرين[94] .

اشتهر اليهود بعلم الطلاسم والذي كان جزء من طقوسهم الدينية، ومن اشهر الطلاسم الموجودين حكاية تداولها الموروث بان أي شخص يمتلكه يسيطر على العالم، وتواجد اليهود بغالبيتهم في بغداد[95].

ذكر لرحالة ولستد بان المسلمون ينظرون اليهم نظرة ازدراء نظرة تفوق نظرة المسيحيين اليهم بريطانيا فأحوالهم سيئة نسبيا ويعيشون في حي خاص بهم، وهم منكمشون على نفسهم ولا يوجد منهم شحاذون في بغداد واذا اصابت احدهم مصيبة سارع اثرياؤهم لنجدته وهم مترابطون وتجمعهم اواصر الاخوة ، اذ يستخدمون عبارات الاخوة وابناء البلد لمخاطبة بعضهم البعض[96]. كما اكدت المس بيل الامر ذاته واشارت الى ان العرب المسلمين ينظرون اليهم ايضا نظرة الازدراء واحتقار [97].

شهدت بعض الولايات بعد اصدار التنظيمات الى المضايقات لاسيما في بغداد وشمال العراق وصلت الى اعدام احد اليهود في بغداد عام ١٨٧٦ بسبب اشاعة ظاهرة اتهام اليهود للاساءة الى الاسلام مادى بالكثير منهم الى الهجرة[98].

قدموا وصفا دقيقا للمراة عامة فكتبوا بان النساء في الموصل عامة ومن بينها النساء المسيحيات واليهوديات فكتبوا بانهم كن يلبسن رداءا واقيا باللون الازرق وهو يشابه ماترتديه النساء في مصر وسوريا، ويرتدين حجابا مصنوعا من شعر الخيل ذي اللون الاسود[99]. وازياء بغداد اقل رونقا وبهاء مما هي عليه في مصر او في استانبول[100].

٣- اقليات اخرى

والى جانب تلك الاقليات وجدت اقليات اخرى جاءت في كتابات الاوربيين لاسيما الرحالة الذين مروا عبر بلداتهم ومناطق سكناهم منهم الصابئة المندائين فقد وصفتهم السيدة ديولافوا اثنار رحلتها للبصرة عام ١٨٨١ بان الصابئة طائفة لها عادات مذهبية عجيبة جدا وتقاليد، وهم يقتربون من المسيحيين ويؤمنون بالنبي يوحنا المعمذان واعتقاداتهم بان المسيح خلفه، وهم لا يتزوجون اكثر من مرة فكتبت" ان حب المحافظة على الطهر وتجنب الاقذار عند هذه الطائفة تكاد تبلغ الهوس والوسواس ...ينبغي على القسوس نفسهم ان يقوموا بالأعمال المنزلية كلها من طبخ وغسل وتدبير واغرب من ذلك انه يحظر لديهم اكل لحم البقر والجاموس والضان والجمل" لانهم يعتبرون هذه المخلوقات نجسة[101].

يذكر حاكم القدس لوقا ايضاً بأن الصابئة المندائين هم ايضا اتباع النبي يوحنا المعمذان وجاء وصفه لهم مقارب لما ذُكر بانهم"فرقة من صائغي الفضة ومعتقداتهم تعودالى اشخاص يعبدون القمر "[102].

عموما يمتاز الصابئة بسمو الاخلاق والكرم ولأمانتهم وصدقهم يضرب بهم المثل كما نقلها لنا الاوربيون، ويكاد عملهم وحرفتهم الوحيدة ينحصر بصياغة حلي الفضة وهم بارعون فيها، وبالرغم من وصفها تلك الا انها عادت لتصف مزاولتهم طقوس دفن الموتى عنهم "بالعمل الوحشي" بان من ضمن عاداتهم عادة دفن الميت الذي يستمر لأربعين يوما وسمته بالعمل الوحشي بسبب بكائهم عليه ...الخ ، فضلا عن انهم متعصبون لمحافظتهم ومذهبهم، وهم يسكنون الاهوار ومستنقعاتها[103].

والشيء الذي يثير الاستغراب انهم وصفوا الصابئة بالمسيحيين الجدد او بفرقة نصرانية جديدة وعندما يشيرون اليهم فانهم يشيرون الى اتباع القديس يوحنا المعمذان، ملات الاساطير والخرافات عقولهم، وليس لديهم شريعة يستندون عليها، بل يعيشون على الفطرة[104].

والى جانب تلك الاقليات الدينية نجد ان الاوربيون في كتاباتهم يذكرون تواجد الاقلية الايزيدية في العراق والتي تُعد من الاقليات المهمة سكنت في العراق وسوريا تحديدا، اذ يذكر لونكريك بان الايزيديين يشاركون الاكراد في الاصول العريقة فانهم يشبهونهم تماما في العادة وفي طراز الحياة ذلك انهم كانوا قد تركزوا في جبل سنجار على بعد ٥ ميل غربي مدينة الموصل ، في حين ان المكان المقدس لديهم وهو مزار الشيخ عدي بن مسافر الذي يقع في سهل الموصل(سهل نينوى حالياً)[105] . لا بل يصفهم ب"الغلاظ" الذين يعارضون بوجه اي انسان او يعارضون السلطات الحاكمة في الدولة العثمانية[106] .

اعتمد الاوربيون في كتاباتهم عن الايزيدية ايضا عن ماكتبه المؤرخون المحليون اذ كتبوا نقلاً عن المؤرخ الكردي البدليسي في مخطوطه الشر فنامه ١٥٩٦ اسم الايزيدية " الطائفة الايزيدية , وتعني(داسن) من يسكن مدينة داسن قرب منطقة الهكاري وانهم كرد"[107]،

كتب الاوربيون عن الايزيدية بانهم عانوا من الاضطهادات المستمرة ضدهم من قبل الدولة العثمانية لاسيما حاكم القدس لوقا الذي زار الموصل بداية القرن العشرين انهم "اناسا دمثي الاخلاق عانوا منذ فترة طويلة من الاضطهاد يسمون الايزيدية[108]... إلههم الاساسي هو الشيطان فقط"[109].

وبالعودة الى مدوناتهم فاننا ما نجده في كتاباتهم يمكن ان نعتبرها المحاولات الاولى لبث مشاعر الكراهية بين صفوف مكونات و فئات المجتمع العراقي وان كانت بصورة غير مباشرة فكتبوا عن المكون الايزيدي بانهم"عبدة الشيطان" وان المسلمون من الشيعة يكرهونهم بسبب معتقداتهم وشعائرهم تلك، والذي يؤجج هذه المشاعر "انتسابهم الى يزيد بن معاوية٦٤٧-٦٨٣م قاتل البطل الشيعي الحسين(ع)"[110] . كما تشير المس بيل الى نفس عبادتهم وتزيد بانهم اناس طيبون ويتوقون الى بريطانيا لمساعدتهم[111].

ذكر الرحالة كرايفيث بانهم كانوا يمقوتون العيش في المدن ويفضلون الحياة القروية برغم الماسي التي حلت بهم ، وهم يعيشون بقرى متباعدة ومنعزلة بين القرى التي يسكنها المسيحيون او المسلمون[112] .

بينما يذكر الرحالة الفرنسي اوليفيه بانهم لا يسكنون المدن لان الناس تنفر منهم لانه لا يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية لذلك يفضلون العيش في الجبل[113] .

ومما يذكره المستشرق الفرنسي توماس بوا بان تاريخ الايزيدين في القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يكن سوى قائمة فاتحة من النهب والمذابح ومزيدا من الضحايا استخدمت ضدهم[114]. لقد وصفوهم بقطاع الطرق ومما كتبوه "انهم لديهم اجسام قوية ونظرات عيون ثاقبة ويثيرون الرعب في نفوس القضاة والملالي ويقطعون الطريق عليهم عند عودتهم من السفر من استانبول...لا ارى انهم يعبدون الشيطان بل يبتعدون عنه لكي لا يؤذيهم" لانهم يعلمون بانهم يملكون الكثير من المال بسبب انتهاء خدمتهم، كلهم اقوياء يتسلحون بالرماح، يبلغ عددهم حوالي اربعة الاف نسمة"[115]. فمن وجهة نظرهم كان الشائع الايزيدية كانوا يسكنون في القرى والجبال والمدن، وكان يزيدية الجبل اكثر وحشية وقساوة من باقي المكونات ، وهم لا يقصون شعورهم ولا يحلقون لحاهم وشواربهم...الخ[116].

اما عن الصورة التي نقلوها الاوربيين في كتاباتهم عن علاقة الايزيدية بمواطنيهم المسلمون نجد ان كتاباتهم ذكرت بأن "المسلمون كانوا يتعاملون مع المسيحيين واليهود ويقيمون السلام معهم بصورة طبيعية ويعيشون جنبا الى جنب ولكن مع اولئك من الدرجة الثانية(أي الايزيدية) لا يتعاملون معهم وكان يُترك لهم حرية الاختيار بين التحويل للإسلام او قتالهم، ومن غير القانوني اخذ الجزية منهم لانهم ينظرون اليهم على انهم ليسوا من اهل الكتاب"، مما ادى الى تعرضهم للاضطهادات المستمرة ومما ذكروه عن الايزيدية ايضاً بانه"يتم ذبح نسائهم ورجالهم دون رحمة(اي من قبل الدولة العثمانية)، ويتم بيع اطفالهم في اسواق النخاسة...هذه الطائفة سيئة الحظ...وانه من الطبيعي ان ينتقم الايزيديون لأنفسهم كلما توفرت الفرصة ضد مضطهديهم"[117].

ومن هنا بدأت المشكلة اليزيدية حالة تاريخية معقدة تفاقمت كثيرا في القرن الثامن عشر، ويكتب العالم الآثاري السير هنري لايارد الذي عاش في الموصل معلومات موسعة ووافرة عن علاقة

باشوات الموصل(يقصد ولاتها)باليزيدية في جبل سنجار وكان الرجل شاهد عيان للأحداث الدموية" لم تكن الاحقاد كامنة بين الدولة وبينهم منذ عهد طويل هذا هو الصحيح ، بل كانت قوية بين الايزيدية وبين البوتان الاكراد، وعلى الرغم من بقاء الموصل قاعدة لانطلاق الحملات الى الاقاليم المجاورة فإنها لم تكن في حقيقة الامر وراء الاحداث الدموية التي بقيت مستمرة بين ولاتها وبين العشائر في جبل سنجار، بل كانت سياسة الدولة العثمانية وراء الحملات القاسية لقطع جذور بعض العشائر عن معتقداتهم، ولم يتورع العثمانيون عن استخدام المدفعية للذين كانت تطلق عليهم المتمردين الايزيدية"[118].

الخاتمة

–تمثل هذه الدراسة نظرة متعددة الجوانب للتصورات الاوربية التي دونوها عن البلاد التي اقاموا فيها او زاروها، وشعوبها ومكوناتها من بينها المكونات الدينية التي تُعد من الاقليات(بحكم عددها القليل) المهمة والاصيلة في مشرقنا العربي لاسيما في العراق ومصر، فالتصورات الاوربية التي نُقلت عن تلك الاقليات هي نظرة سلبية ولا تختلف كتاباتهم كثيرا عن تلك التي وصفوها عن مواطنيهم المسلمين كشرقيين.

– جاءت كتابات الاوربيين عن نظرة المسلمين للعالم والتي فيها عرض لفكرتهم الاساسية عن "دار الاسلام ودار الحرب"، لطمس الحقيقة التاريخية والعلاقات الانسانية المتينة القائمة بين المسلمين وبين مواطنيهم من الاقليات الدينية الاخرى كافة، فمن خلال ماعرضناه نفهم ان نظرتهم السلبية من خلال تشويه تلك الصورة في كتاباتهم التي اظهرتهم بمظهر"الجهلة والمتخلفين"هي لتنفيذ غايات ووسائل الدول الاوربية في تحقيق اطماعها التوسعية والاستعمارية في البلدين، واتخذت من "تخلف العرب" ذريعة ليُنصِب الاوربيون انفسهم اسياداً على المنطقة برمتها والتخطيط لتقسيمه مذهبياً وطائفياً.

– ان الاوضاع الداخلية للدولة العثمانية كالفساد وطغيان الاسر الحاكمة وظهور تيار العلمانية، ساهمت مساهمة كبيرة في تنوع الرؤى لتحديد اهمية المنطقة بالنسبة للعالم، وكان لها اثر كبير في التأثير على صناع القرار السياسي في الدول الاوربية ولان الأخيرين يعتمدون في رسم سياسات

الدولة على المعلومات والتقارير وعلى مجموعة افتراضات ترد اليهم ، كل ذلك مكنها من تحديد اتجاهاتها في السيطرة والتوسع بعد فشل الدولة العثمانية في مجاراة الدول الاوربية او في التصدي لها.

– ما ان بدأ اتصال الاوربيين على المستوى الشخصي مع شعوب ومكونات البلدين عامة حتى نجد بان اغلب كتاباتهم تفتقر الى الحيادية فعندما كتبوا عن الخلافات المذهبية بين الدولتين العثمانية والصفوية او عن العلاقات الاسلامية مع باقي الاديان بانها علاقات تتسم بالتوتر والتصعيد، كتبوا ذلك ليُمكنوا حكوماتهم الاوربية لاخذ كل الاجراءات لينظموا انفسهم تحت مسميات علاقات"التنافر والتوتر" المستمرين ويستغلوا نقاط الضعف عند المسلمين عامة ليوجهوا لهم ضربات متتالية، فكان مبدأ حماية الاقليات وظهور المسالة الشرقية السبب المباشر للتوسع الاوربي في البلاد العربية وبالتالي استخدم ذلك لغرض التدخل المباشر في شؤون تلك الدول لا بل توجيه ضربات وخلق ازمات لازالت مستمرة الى يومنا هذا.

–ومن خلال كتابات الاوربيين يتضح لنا ان المصالح الاوربية تتم خدمتها بشكل افضل من خلال المحافظة على الوضع القائم، والتركيز اكثر على اثارة الفتن الطائفية والاضطرابات بين شعوب المنطقة مما يقوي من نفوذها وسيطرتها ، واظهار العرب بمظهر انهم على خلاف دائم مع باقي الاقليات الدينية واستحالة الوصول الى تسوية مع باقي المكونات الدينية، لذا يتحتم عليها ابقاء نفوذها العسكري في المشرق العربي.

الهوامش

(1) برهان غليون، المسالة الطائفية ومشكلة الاقليات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص ص ٥–٦.

(2)برنارد لويس، الهويات المتعددة للشرق الاوسط، ترجمة حسن البحري، دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦، ص٦.

(3) حيدر جاسم الرويعي، إطلال سالم حنا، اثر مدونات الاوربيين في تحديد ملامح التعددية في المشرق العربي قراءة جديدة وفقا للمعطيات الراهنة، في: كتاب المؤتمر الدولي الثاني التراث العربي والاسلامي الرصيد والعمل والثقافة والحضور ٢١–٢٢ فبراير ٢٠١٨، القاهرة، ٢٠١٨، ص ص ٤٧٨–٤٧٩.

(4) راولف اينهولت، رحلة اينهولت الهولندي الى العراق سنة ١٨٦٦–١٨٦٨، ترجمة مير بصري، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، بيروت ، ٢٠٢١، ص١٦٦.

(5) هنري سواينسون كاوبر، رحلة عبر الجزيرة الفراتية الى الخليج العربي ١٨٩٣، ترجمة رنا إيبش،دار الكتب الوطنية، ابو ظبي، ٢٠١٢، ص٣٥.

(6) برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لاوربا، ترجمة ماهر عبد القادر، المكتبة الاكاديمية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٧١.

(7) ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة سليم طه التكريتي ،ط٤، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ٤٢.

(8) ولد السلطان محمد الثاني في مدينة ادرنة عام ٨٣٣هـ اي مابين الاعوام ١٤٢٩-١٤٣٠م، قام بالكثير من الفتوحات على الجبهة الاوربية وصل عددها الى ٢٠٠ مدينة منها اثينا والبوسنة وبلغاريا واهمها فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، ومن هنا لقب بالفاتح ، توفي عام ١٤٨٢م، ينظر: يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من اول نشاتهم الى الان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ص ٤٩-٥٢

(9) Stanford Shaw and Ezel Kural Shaw, History of Ottoman Empire and Modern Turkey, New York, 1978, p13.

(10) Benjamin Braude, Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Abridged Edition , 2014,P15. www.rienner.com.

(11) Emrah Sahin, Ottoman Institutions, Millet System: 1250 to 1920: Middle East, May,2012, https://www.researchgate.net/publication/311680222

(12) محمد علي بيود،" وضع وحقوق الاقليات في الدولة العثمانية: دراسة وثائقية تاريخية نموذجية"، مجلة دراسات بيت المقدس، ٢٠١٦, ص٢١ www.isravakfi.org

(13) Khaled Abdelkader El-Jundi1 , CHRISTIANS IN THE OTTOMAN PERIOD, Route Educational and Social Science Journal, Volume 4(6), October ,2017, p 420.

(14) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلو المصرية، ج١، القاهرة، ١٩٧٤، ص٦٨.

(15) عبد المجيد حسيب القيسي، التاريخ السياسي والعسكري للاثوريين في العراق ١٩٢١-١٩٩٩، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٠.

(16) احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني،ط٢،دار الشروق،القاهرة،١٩٦٨،ص ١٠٩.

(17) Sara Barbierim, Ottoman Millet System and National-Cultural Autonomy. A Distance Dialogue, European Consortium for Political Research 41st Joint Sessions, University of Mainz, 11-16 March, 2013,p6.

(18) ابتدا عصر النهضة العربية الحديثة باضطلاع المفكرون والأدباء المسيحيون والمسلمون بدور متميز في الثقافة العربية الإسلامية ، كان البداية الحقيقية لمرحلة وعي سياسي لتاريخ ومصير جماعة ثقافية لغوية هي الامة العربية والتي ابتدأت مع ازمة العرب والعثمانيين، احتضنتها المدارس التابعة للإرساليات التبشيرية في مصر والعراق وبلاد الشام، للمزيد من التفاصيل، ينظر: إطلال سالم حنا, المدارس الفكرية المسيحية واثرها في الفكر التاريخي العربي

قراءة جديدة في منهج المؤرخين الرواد السريان، قراءات في المدارس الفكرية التاريخية العالمية دراسات فكرية وتحليلية مقارنة، الاتحاد الدولي للمؤرخين، انقرة، ٢٠١٩،ص ص ٢٧٦-٢٧٧.

(19) فؤاد يوسف قزانجي، اصول الثقافة السريانية في بلاد ما بين النهرين، دار دجلة، بغداد، ص١٤٢.

(20) توما جليك وصبحي إكسوي، تاريخ السريان في بلاد النهرين، ترجمة احمد سليمان الابراهيم ومحمد يوفا، مطبعة سيماق، القامشلي- سوريا، د.ت، ص٣٠٢.

(21) المصدر نفسه، ص٣٠٢.

(22)F.O 633: from draft of Chapter XXXIV"the native Christians,Minorities in the Middle East"from situation in Egypt :Lord Cromers Account,undated,1917.

(23) صموئيل اتينجر، اليهود في البلدان الاسلامية ١٨٥٠-١٩٥٠، ترجمة جمال احمد الرفاعي،عالم المعرفة، ص ص ٤٥-٤٦.

(24) كان مصطفى رياض باشا هو رئيس الحكومة المصرية انذاك، وهو من اصول تركية ولد عام ١٨٣٣، تدرج في المناصب، اصبح رئيسا للديوان الخديوي، وعين رئيساً للجنة التحقيق المَالية التي أرسلت للنظر في لأمور المالية الى مصر عام ١٨٧٨ ، أصبح رئيساً للوزراء لثلاث دورات توفي عام ١٩١١،ينظر:"رياض باشا"، مجلة المقتطف، ج٢، مج٣٩،القاهرة، آب، ١٩١١، ص ص ١٠٥- ١٠٦.

(25) الفريد سكاون بلنت، التاريخ السري لاحتلال بريطانيا، راجعه محمد عبدة، مكتبة الاداب القاهرة، ٢٠٠٨، ص٧٤.

(26) العراق في رسائل المس بل ١٩١٧/١٩٢٦، ترجمة جعفر الخياط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٣، ص١٩١.

(27) بعد ان بدات القوات البريطانية أُولى مراحل احتلالها العراق منذ عام ١٩١٤ عمدت الى تشكيل قوات الليفي في عام ١٩١٥ من قبل الميجر ايدي Eadie وتعني كلمة Levy-Levies المجندين او الجنود المرتزقة، كان الغرض من تشكيلها لتلك القوات استخدامها للأغراض العسكرية، وتم تدريب وتنظيم قوات الليفي فاصبحوا قوة عسكرية منظمة، ينظر: رياض رشيد ناجي الحيدري، الأثوريون في العراق ١٩١٨-١٩٣٦، مطبعة الجيلاوي، القاهرة، ١٩٧٧، ص ص ١٣١-١٣٢.

(28) جي. كيلبرت براون, قوات الليفي العراقية ١٩١٥-١٩٣٢، ترجمة مؤيد ابراهيم الوندواوي, المؤسسة الملكية للخدمة المشتركة وايت هول.اس.دبليو, السليمانية,٢٠٠٦, ص ٤٨.

(29) هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، ترجمة محمد مخلوف، دار قرطبة للنشر والتوثيق والابحاث، د.م، ١٩٩٢، ص٣٨.

(30) ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص ٤٣.

(31) فسر البعض الى ان جذور المسالة الشرقية تعود الى فترة الحروب والنزاعات بين اوربا والشرق أي فترة الحروب الصليبية وفيها ظهر الصراع على انه بين الديانتين السماويتين الاسلام والمسيحية، بينما اعادها البعض الى انه نزاع ذاتي قائم بين الدولة العثمانية والدول الاوربية منذ فتح العثمانيين للقسطنطينية وسيطرتهم على العديد من الدول الاوربية منها صربيا وبلغاريا واليونان، وبدات تلك الدول بطرد العثمانيين منذ القرن التاسع عشر الميلادي بعد ان خاضت سلسلة حروب معها، لا بل بدا الاستعمار الاوربي للولايات العربية التابعة للسيطرة العثمانية منها احتلال

بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، للمزيد من التفاصيل، ينظر: مصطفى كامل، المسالة الشرقية، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٨٩٨، ص ص ٥-٦.

(32)جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي، رحلة سباستياني الى العراق سنة ١٦٦٦، ترجمة بطرس حداد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٦، ص٢٣.

(33) F.O,4849/2 P0litical.Bull of 3Lst August,1869.

(34) فيليب ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، ط٢، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٣، ص٣١.

(35) لورنس، المصدر السابق، ص٣٠.

(36) اوستن هنري لايارد، نينوى واثارها، ترجمة خضر علي سويد، مج١، دار الرافدين، بيروت، ٢٠١٨، ص١٩٥.

(37) الرويعي وحنا، المصدر السابق، ص ٤٨٠.

(38)لورنس، االمصدر السابق ، ص ص٤٠- ٤١.

(39) أ.و.كينغلك، رحلة الى المشرق١٨٣٤-١٨٣٥، ترجمة محمود العابدي، دار السويدي للنشر والتوزيع، دبي،٢٠٠٥، ص ٨٩.

(40) تقرير عن مالية مصر وادارتها وحالتها وتقدم الاصلاح فيها سنة ١٨٩٩ رفعه جناب الفوكونت كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسي في مصر الى جناب المركيز سالسبري ناظر خارجيتها ، ترجمة ادارة المقطم، ١٩٠١، ص ٤٥.

(41) تقرير عن الادارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩٠٦ رفعه جناب الفوكونت كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسي في مصر الى جناب المركيز سالسبري ناظر خارجيتها ، ترجمة ادارة المقطم، ١٩٠٧، ص ١٠.

(42) يذكر البروتستانت بان تعبير الملك الالفي يشير الى ملك السيد المسيح(ع) على الارض الذي يدوم الف عام للمزيد من التفاصيل ينظر:ب.ك. نلسون ، تعاليم الكتاب المقدس، ترجمة عياد خليل شنودة واسكندر سمعان، المطبعة العصرية،القاهرة،١٩٨٤،ص١٥٠.

(43) كلوديوس جيمس ريج ، رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ الى بغداد-كردستان-ايران, ترجمة بهاء الدين نوري، الدار العربية للموسوعات ، بيروت،٢٠٠٨، ص ٢٩٥.

(44) لويس، اكتشاف المسلمين لاوربا، ص٦٠.

(45) قام السلطان العثماني عبد المجيد الاول ١٨٣٩-١٨٦١باجراء اصلاحات عديدة في الدولة العثمانية محاولا بذلك تقوية سلطة الدولة المركزية للحد من التدخلات الاوربية، فقام بإصدار خط شريف كولخانة عام ١٨٩٣الضمان حقوق افراد الدولة العثمانية بغض النظر عن دينهم او معتقدهم، فضلا عن اصداره خط شريف همايون في عان ١٨٥٦ وفيه اقر المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات دون تمييز في الدين او العرق، ينظر: هيثم محي طالب الجبوري و زينب حسن عبد الجبوري،"اثر حركة الاصلاح العثمانية في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر، مجلة جامعة بابل، العراق، ع٣، مج٢٣، ٢٠١٥، ص ص ١٤٦٣-١٤٦٤.

(46) يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية الى الوقت الحاضر، ترجمة محمد الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١١، ص١٩.

(47) غليون، المصدر السابق ، ص ١٣.

(48) ايرلاند، المصدر السابق، ص٣٣.

(49) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، احداث العراق السياسية ١٩٣٣-" ١٩٥٨ ،بحث مستل من كتابهما Iraq ، ترجمة مصطفى نعمان احمد, كلية الاداب، الجامعة المستنصرية ، د.ت، ص ٩٦.

(50) جوزيف ابو نهرا، المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني، المؤتمر الدولي خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الادنى في زمن التحولات ، مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات، جامعة القديس يوسف، بيروت، ٢٠١٣، ص ١.

httpcerpoc.blogs.usj.edu.lbfiles201302abounohra.pdf

(51) تيودور روذستين، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة احمد علي شكري، مكتبة الهلال، القاهرة، ١٩٢٧، ص٢١٥.

(52) جيمس فيلكس جونز، مذكرات القائد جيمس فيلكس جونز، بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة عبد الهادي فنجان الساعدي،دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٤، ص ص ٩٤-٩٥.

(53) سي أم كرستجي، ارض النخيل رحلة من مومباي الى البصرة والعودة اليها ١٩١٦-١٩١٧، ترجمة منذر الخور، مطبوعات بانوراما الخليج، البحرين، ١٩٨٩،ص ١٧٠.

(54) جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧م، ترجمة خالد فاروق عمر، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٠،ص١٢٠.

(55) F.O 633: from draft of Chapter XXXIV"the native Christians,Minorities in the Middle East"from situation in Egypt :Lord Cromers Account,undated,1917.

(56) تضاربت اراء الباحثين والكُتاب في تحديد تسمية "الايزيدية " وظهر ذلك جليا في اختلافهم في بيان منشأ ديانتهم ، فحاول بعضهم" ارجاعهم الى اصول قديمة مجوسية وغير مجوسية ، مما كان شائعا في بعض انحاء الشرق الاوسط قبل الاسلام، ومنهم من عزا بعض معتقداتهم الى اصول مسيحية ، ومنهم من يرى انهم لا يعدون الا فرقة اسلامية ...زاغت عن اصلها القديم وتمادت في الابتعاد حتى انتهى امرها الى ماهي علي اليوم"، ينظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني في فترة الحكم المحلي ١١٣٩_١٢٤٩ هـ١٧٢٦_١٨٣٤م، مطبعة الآداب، النجف الاشراف ، ١٩٧٥ ، ص ١٧٢؛ وقد انفرد المستشرق الفرنسي ليسكو في تقديم الدراسات العلمية عنهم للتفاصيل: ينظر، روجيه ليسكو، اليزيدية في سوريا وجبل لبنان، ترجمة احمد حسن، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٧.

(57) لوقا، المصدر السابق، ص ص ٢٣-٢٤.

(58) تعليق الباحثة.

(59) جان باتريست تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه الى العراق، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص٤١.

(60) بيترو ديللافاليه، رحلة ديللافاليه الى العراق مطلع القرن السابع عشر، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٧٠.

(61) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(62) F.O,4849/2 P0litical. Consul- General Miles to her Majesty's Principal Secretary of state for Foreign Affairs, Bagdad ,May 26, 1880.

(63) F.O,4849/2 P0litical. Consul- General Miles to Sir A.H.Layard Mosul, March 31, 1880.

(64) F.O,4849/2 P0litical.Petition from the Old Chaldean Community of Mosul to Miles,Her Majesty's- Consul- General,Mosul,December 27,1879.

(65) F.O,4849/2 P0litical. Consul- General Miles to Sir A.H.Layard Mousl, March 31, 1880.

(66) F.O,4849/2 P0litical.Bull of 3Lst August,1869.

(67) F.O,4849/2 P0litical.Petition from the Old Chaldean Community of Mosul to Miles,Her Majesty's- Consul- General,Mosul,December 27,1879.

(68) جمس بنكهام، رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦، ترجمة سليم طه التكريتي، مطبعة اسد،ج١، بغداد، ١٩٦٨، ص 53.

(69) ليونهارت ، المصدر السابق، ص٢٠٢.

(70) هنري سواينسون كاوبر، رحلة عبر الجزيرة الفراتية الى الخليج العربي عام ١٨٩٣، ترجمة رنا ايبش،دار الكتب الوطنية، ابو ظبي، ٢٠١٢، ص 261.

(71) F.O,4849/2 P0litical.Petition from the Old Chaldean Party residing at Teleskof to Her Britannic Majesty's- Consul- General Dated Teleskof- Mosul, February 14,1880.

(72) F.O,30457/135: forward herewith for yor information a copy of the paper noted in the Margin, office of the Civil Commissioner-Gertrude Bill, Baghdad, 10 January, 1919.

(73) ريج، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(74) Peter Sluglette, Britain in Iraq,Tauris &Co Ltd,London,2007,PP46-47.+

(75)جان باتيست طولو، رحلة جديدة الى ارض المشرق، ترجمة عبد الهادي الادريسي، دار الكتب الوطنية، ابو ظبي، ٢٠١٣، ص٤٤.

(76) علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب،ط٣، صندوق التنمية الثقافية، مج١، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٨-٢٩.

(77)إيه. كاميرون، مصر في القرن التاسع عشر او محمد علي ومن خلفوه الى الاحتلال البريطاني في العام ١٨٨٢، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٩، ص ٨٥.

(78) كليليا سارتلي تشيركوا، زيارة الرحالة الاندلسي لمدينة القاهرة في القرن السابع عشر،في ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مطبعة دار الكتب ، ج٢، د.م، ١٩٧١، ص ٨٧٦.

(79) فلاديمير بلياكوف، رحلة الى ضفاف النيل المقدسة، ترجمة انور محمد ابراهيم، المركز القومي للترجمة،القاهرة،٢٠٠٦،ص ٣٦.

(80) اندريه ريمون، المدن العربية الكبر في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص٨٣.

(81) علماء الحملة الفرنسية، المصدر السابق، ص ٣١.

(82) ولد بطرس غالي في مدينة القاهرة عام ١٨٤٦. تلقى تعليمه في مدرسة حارة السقائين، ثم في مدرسة الأقباط الكبرى، اجاد اللغتين العربية والفرنسية الى جانب لغته الام القبطية، عمل مدرساً في مدرسة حارة السقائين بعد تخرجه، اصبح مترجماً في مجلس التجارة في مدينة الإسكندرية عام ١٨٦٧، وأصبح عام ١٨٧٣ كاتب لوزارة العدل، تدرج في المناصب ، أصبح وزيراً للمالية ، فوزيراً للخارجية, ورئيسا للوزراء.للمزيد من التفاصيل، ينظر: "بطرس باشا غالي"، مجلة المقتطف، ج٤، مج٣٦، القاهرة، نيسان، ١٩١٠، ص ص ٤٠- ٤١.

(83) J. D. Pennington "The Copts in Modern Egypt" Middle Eastern Studies, No2, Vol 19, London, April, 1982, P 160.

(84)F.O 633: from draft of Chapter XXXIV"the native Christians,Minorities in the Middle East"from situation in Egypt :Lord Cromers Account,undated,1917.

(85) F.O, 633/7. Lord Gromer to the Earl Of Kimberley- Cairo, February 22, 1895,R.M. A.C.G.F.A.C.E.S.

(86) John Marlowe , Cromer in Egypt , Elek Books , London ,1970,P 57.

(87) Rapport De Lord Cromer L'e Egypte et Le Soudan, Le Caire Imprimerie Nationale , Française, 1907, P 93.

(88) ستيفن همسلي لونكريك، فرانك شتوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى تموز ١٩٥٨، ترجمة مصطفى نعمان احمد، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٢٠٢١. ص٣٧.

(89) جوردون كرامر والفريد مورابيا، في مواجهة الحداثة اليهود في القرنين التاسع عشر والعشرين، في: جاك حاسون، تاريخ يهود النيل، ترجمة يوسف درويش، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٨٣.

(90) ديزموند ستيورات، القاهرة، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٠٦.

(91)جمس ريموند ولستيد، رحلة الى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم طه التكريتي، مطبعة ثويني، بغداد، ١٩٨٤، ص ٨٠.

(92) ريمون، المصدر السابق ،ص٨٣.

(93) لورد كرومر، عباس الثاني، ترجمة فؤاد، مطبعة محمد مطر، القاهرة، د.ت، ص٣.

(94) ولستيد، المصدر السابق، ص٦٢.

(95) بنكهام، المصدر السابق, ص ٦٩-٧٠.

(96) ولستيد، المصدر السابق ، ص ص ٩٤-٩٥.

(97) العراق في رسائل المس بل ١٩١٧/١٩٢٦، ترجمة جعفر الخياط، الدار العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٧١.

(98) اتينجر، المصدر السابق، ص٥٥.

(99) بنكهام، المصدر السابق، ص ٦٦.

(100) جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى العراق سنة ١٨٣٤م، ترجمة جعفر الخياط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٦، ص٨٨.

(101) ديولافوا، رحلة مدام ديولافوا من المحمرة الى البصرة وبغداد ١٢٩٩هـ-١٨٨١م،ترجمة علي البصري، الدار العربية للموسوعات، بيروت،٢٠٠٧، ص ٣٠.

(102) لوقا، المصدر السابق،ص ص ٢٣-٢٤.

(103) ديولافوا، المصدر السابق ، ص ٣١-٣٢.

(104) جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي، رحلة سباستياني الى العراق سنة ١٦٦٦، ترجمة بطرس حداد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤٥.

(105) ستيفن همسلي لونكريك ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ ، ترجمة سليم طه التكريتي، مطبعة حسام، ج ١، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ٣٠.

(106) لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص ٢١.

(107) توماس بوا، اليزيديون واصولهم الدينية و معابدهم ، والاديرة المسيحية في كردستان العراق ، ترجمة سعاد محمد خضر ، مركز الاكاديمي للابحات ، بيروت ، ٢٠١٣ ، ص ٤٧ .

(108) تضاربت اراء الباحتين والكُتاب في تحديد تسمية "الايزدية " وظهر ذلك جليا في اختلافهم في بيان منشأ ديانتهم، فحاول بعضهم" ارجاعهم الى اصول قديمة مجوسية وغير مجوسية ، مما كان شائعا في بعض انحاء الشرق الاوسط قبل الاسلام، ومنهم من عزا بعض معتقداتهم الى اصول مسيحية ، ومنهم من يرى انهم لا يعدون الا فرقة اسلامية دخلت غلت فضلت وزاغت عن اصلها القديم وتمادت في الابتعاد حتى انتهى امرها الى ماهي علي اليوم"، ينظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني في فترة الحكم المحلي ١١٣٩_١٢٤٩ هـ١٧٢٦_١٨٣٤م، مطبعة الآداب، النجف الاشراف، ١٩٧٥، ص ١٧٢؛ وقد انفرد المستشرق الفرنسي ليسكو في تقديم الدراسات العلمية عنهم للتفاصيل: ينظر، روجيه ليسكو، اليزيدية في سوريا وجبل لبنان، ترجمة احمد حسن، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٧.

(109) لوقا، المصدر السابق ،ص ص ٢٣-٢٤.

(110) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(111) العراق في رسائل المس بل ١٩١٧/١٩٢٦، ص ٩٤.

(112) نقلا عن: ارشد حمو محو، الايزيديون في كتب الرحالة البريطانيين من مطلع القرن التاسع عشر الى نهاية الحرب العالمية الاولى، مطبعة خانى، دهوك،٢٠١٢،ص١١٩.

(113) اوليفييه، رحلة اوليفييه الى العراق، ترجمة يوسف حبي، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٩٨٨، ص ٤٤.

(114)بوا، المصدر السابق ، ص ص ١٢٧-١٢٨.

(115) الرحالة الايطالي سيستيني، رحلة من استانبول الى البصرة سنة ١٧٨١، ترجمة بطرس حداد، دار العلم والايمان للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٤، ص ٢٥-٢٦.

(116) بنكهام، المصدر السابق ،ص ٢١.

(117) ليسكو، المصدر السابق ،ص ص٢١٢-٢١٣.

(118) نقلا عن: سيار كوكب علي الجميل، الموصل في نهاية الحكم الجليلي الى الادارة المباشرة (١٢٤٩_ ١٢٨٦هـ١٨٣٤_ ١٨٦٩م)، في: موسوعة الموصل الحضارية، دار الكتب للطباعة والنشر، مج٤،جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص٤٢- ص٨٢.